النّمل الأشقر

ليلى العثمان

انتشر النمل الصغير في بيتنا.. كبر.. ونما.. غذّيناه بصمتنا تركناه يتزاوج.. ويتوالد.. نظرنا له من أعلى.. فرأيناه مخلوقاً ضعيفاً.. حرام أن تدوسه الأقدام.. ولهذا.. استغل النمل طيبة قلوبنا.. فانتشر في البيت كالقمل.. وصار يحفر بيوته تحت الأرض.. ويخزن مؤونته التي يسرقها من غذائنا.

كنت ألحظ أفواجه السوداء الصغيرة.. نملة تهمس في رأس نملة.. وأخرى تحتك بخلف التي تسبقها.. وكان يتسلّق السقف أحياناً..

وأتذكر حكاية أمي عن خالتي الطفلة:

« حين صار عمر أمي ثلاث عشرة سنة.. ولدت جدّتي بنتاً فرح بها أهل البيت فرحاً كبيراً.. فقد مضى زمن طويل لم تسكن الطفولة بيتَ جدّي. وفي اليوم الأول، استيقظت جدتي من نومها لترضع خالتي الصغيرة.. فلاحظت النمل ينتشر في سريرها...

وانطلقت الحكاية بعد أسبوع في كل مكان... أسبوع كامل سكن النمل خلالها مهد الطفلة.. ولم يبق طبيب إلاّ وذهبت إليه جدتي.. ولم يبق قارىء قرآن لم يدخل بيت جدّي ليقرأ آياتٍ من الذكر الحكيم على سرير الطفلة... ووقفت جدتي يوم الجمعة كذلك عند باب الجامع.. تحمل فنجان الماء.. لينفخ فيه كل المصلين واحداً تلو الآخر.. حتى الدّجالون وصانعو الأحجبة.. لجأت إليهم جدتي لتنقذ الطفلة التي أشرق وجهها بالفرح على البيت.. ومن فيه.

في النهاية.. قررت جدتي أن تعلق الطفلة في السقف.. أحضرت سلّة.. فرشتها.. ووضعت فيها الطفلة ثم علقتها في السقف.. ونامت ليلتها مطمئنة.

في الصباح... كانت المفاجأة: وجدوا الطفلة ميتة.. ولم يتبينوا ملامح وجهها أو.. جسدها فقد غطاه النمل الأسود.

* * *

حكاية أمي عن أختها - خالتي - تتهادى مع كل سرب من أسراب النمل الذي يعيش في بيتنا.. فقررت أن أقتله!

صرخت بي أمي:

- لا تقتلي النمل يا عريب: هو مخلوق ضعيف.

لكنني كرهته.. ولم ألتفت لتنبيه أمي الدائم.. فقد صار النمل يملأ البيت.. في النهار أطارده.. وفي الليل يطارد رقادي.. وحتى أحلامي.. كنت أرى فيها فلول النمل تجتاح سريري.. ثم تتحدّ تتلاصق.. وتكبر.. حتى تصبح نملة واحدة كبيرة ذات أرجل ضخمة مليئة بأشواك ذات رؤوس.. تدنو مني.. تحاول غرس أشواكها في لحمي.. أصرخ فزعة.. وتصحو أمي:

- ما بك يا عريب؟

- الحلم...

- الحلم نفسه.. أليس كذلك؟

- نعم يا أمي...

تحمل أمي طاسة الماء المعدنية المزخرفة بأسماء الله وبالآيات الكريمة.. تسقيني الماء.. تبلل جفاف حلقي.. وتعاتبني:

- قلت لك ألف مرة.. دعي النمل.. ولا تؤذيه..

لكن النمل صار مشكلتي.. وحين يأتي الصباح أنسى حلم الليل. أذهب إلى مدرستي.. عيناي تتحركان في كل اتجاه.. ما إن أرى نملة حتى أسارع لأهرسها تحت قدميّ.. وأحس بالمتعة تتسرب إلى نفسي حين أراها مسحوقة كجزء من تراب الشارع.

وذات يوم دخل إلى بلدتنا نمل غريب... نمل أشقر طويل نحيف.. شره.. يلتهم كل ما يراه.. وتمتد أرجله وأيديه لتسرق كل ما في البيوت..

ونسيت النمل الأسود.. وبدأ خوفي من النمل الأشقر.. وبدأت أطارده.. وفي طريق العودة من المدرسة، كنت أمرّ على دكان «أبو مسامح» أقف.. أرقبه يكيل السكر.. فتتناثر الحبات الحلوة ويتهافت النمل: فأعترض:

- لا تقدم الوجبة للنمل يا «أبو مسامح».

فيزجرني بصوته الخشن:

- ما عليك من النمل.. وهذا مالي وأنا حر فيه.

- لكن هذا النمل صار يملأ كل مكان..
- هذا النمل مخلوق ضعيف.. والبلدة كبيرة تستوعب كثيراً من المخلوقات...
- أمي أيضاً تقول إنه مخلوق ضعيف.. لكنني أراه شريراً.. حين تنامون في الليل.. يتجمع.. تُصبح الآلاف منه واحدة.. وتنقض على سريري.

يلوي «أبو مسامح» شفتيه.. فأتركه.. أشبك ذراعي بذراع صديقي. نسير معاً.. عيناي تراقبان الأرض.. وعيناها تراقبان عيني.

- لماذا تكرهين النمل يا عريب؟؟
- لأنني أراه كالريح السوداء التي لا تبقي ولا تذر.
- إنه مخلوق ضعيف.
- هذا ما يزعجني.. إن هذا التصور سيجعله يتمادى.. ويحتل بيوتنا.. ويأكل أرزاقنا.. وقد يسبب مرضاً ما..

ونمرّ على دكان «أبو مسامح» الذي صار يغيظني وينثر حبات السكر فيجمع النمل.. ويزجرني لأبتعد.

جمعتُ رفيقاتي في المدرسة.. قلت لهن:
- من منكن تريد أن تنضم لجمعيّتي؟

تضاحكن:
- جمعية؟
- نعم.. جمعية محاربة النمل الأشقر.

هزئن بي.. وحزنت.. لكنني لم أستسلم لحزني.. فقد كان خوفي أكبر...

حاولت: وحاولت.. مع كل من أراه.. زميلاتي في المدرسة.. أبناء الجيران.. والبائعين الصغار من الأطفال..

صرنا سبعة:
صرنا عشرين..
صرنا.. مئة.

لكن النحل يزداد.. ويزداد.. وفي الليل يصير نملة واحدة.

* * *

أعلنت جمعيتنا عن أهدافها:

«لوحظ تزايد النمل الأشقر في بلدتنا.. وعليه.. يجب مكافحته». مررت على دكان «أبو مسامح» نثر السكر كعادته.. قلت لرفيقتي:

- أنظري: إنه يتحدى جمعيتنا.. سأشكوه لدائرة التموين.

لكنني بعد أيام من شكواي، فوجئت بالنمل الأشقر يملأ الدائرة. فسارعت إلى مركز شرطة المدينة.. وشكوتُ الدائرة: فرأيت بعد أيام شرطة المركز تسلّم النمل الأشقر أكياس الأرز وبعض المؤن!.

لمن أشكو مركز الشرطة؟

آه!.. للحكومة.. لكن أمي حين سمعت ما أنويه قالت:

- الحكومة أعلنت عن جائزة كبيرة لمن يحوّل مسار النمل المنتشر في البلدة إلى مقرّها...
- ولماذا؟

قالت أمي:

- لتحصر انتشار النمل كما تقول..

وتركت أمي تحلم بالجائزة مثل الكثيرين.

وصار السكر الحلو يرش.. ويُفرش في الطرقات.. إلى مقر الحكومة التي أعلنت أنها سوف تحصره في مقرها.. ثم تقضي عليه. رفضت وزملائي في الجمعية - الذين تجاوز عددهم الألف - عرضَ الحكومة.. واستمرت مقاومتنا للنمل في الشوارع وفي الحوانيت.. واستخدمنا في ذلك كل الوسائل.. الحصى.. والأحذية.. والمبيدات.. وأيضاً استنفار أكبر عدد ممكن من الناس ضدّه..

وأعلنت الحكومة غضبها علينا.. وحين كنا في المدرسة جاءت الشرطة فسحبت مجموعة كبيرة منّا إلى رئيس الشرطة. صرخ في وجوهنا:

- أنتم تخالفون أوامر الحكومة.. لماذا؟

قلت بحماسة:

- لأنها تشجّع تدفق النمل إلى بلدتنا.

صفعني.. وكانت يده رطبة.

قال:

- نحن نريد أن نحصر النمل في مكان واحد.. ثم نكافحه.

لم ترهبني الصفعة.. قلت:

- بل تفتحون له الدوائر.. والمكاتب.. والحوانيت.
- نعم.. نفعل هذا.. وهنا.. نبيده بطريقتنا الخاصة. نعطيه سموماً.
- كم ألفاً قتلتم؟

نفخ في وجهي.. ففاحت رائحة سجائره:

- لم يمت بعد ولا عشرة:

صفقت بيدي:

- عظيم.. عظيم.. وأين مفعول السموم؟

قلّدني.. صفق بعصبية واضحة:

- مفعولها يظهر بعد فترة.. يتضاعف حجم النملة.. تكبر.. حتى تصير بحجم الصرصار..

وأشار إلى وجهي..

قبلت الإهانة.. وقلت:

- وبعد؟

فأجاب:

- بعدها نطلق عليها النار.. فنصيبها.
- غداً نرى.

ونظرت إليه بحقد وأنا أكمل بداخلي:

- غداً نرى.. أيها الغبية..

أذيع البيان للمرة العاشرة:

«أيها المواطنون.. لقد كبرت أحجام النمل.. وأصبحت الحكومة غير قادرة على مكافحته والقضاء عليه.. لذا.. نرجو إخلاء المنازل لمدة قصيرة. حتى تتمكن الحكومة من رش السموم وتطهير البيوت.. وبعدها سنعلن عن موعد العودة».

هبت جمعيتنا.. وهب كثير من الناس.. حتى الذين صدقوا الحكومة وساعدوها أحسّوا بأنهم خدعوا.. فخرجوا إلى الشوارع.. صرخوا.. هتفوا لموت النمل.. وبعضهم شتم الحكومة التي غذته بسمومها ليكبر.. لكن كثيرين من الناس أيضاً تركوا منازلهم خوفاً وقد أقفلوا خزائنهم.. وبعضهم دفن ماله تحت البلاط.

الساحات مليئة بالناس.. أكثرهم من الفقراء والثائرين في جمعيتنا.. والحكومة سارعت ونشرت شرطتها في كل الأنحاء..

كان النمل يخرج إلينا.. الواحدة بحجم الإنسان.. الأرجل الطويلة والعيون التي تندفع منها شرارات الحقد..

واشتبكنا: وسالت دماء..

* * *

قال لي أحد الزملاء من الذين قرروا البقاء مع مجموعات أخرى:

- لا تخشي يا عريب.. سنبقى نحن هنا بانتظاركم.. وسنقضي على النمل.

وفي طريقنا إلى قرية مجهولة، وتحت إلحاح أمي وخوفها.. كنا نسير.. تحمل هي بعض الأشياء، وأحمل أنا كتبي.. وشهادتي وحزني..

وحين لاحظت أمي نملة في الطريق صرخت بي:

- عريب: تلك نملة... أقتليها!

وحين فعلت.. انخرطت أمي في بكاء استمر أعواماً طويلة.

الكويت

صدر حديثاً عن مؤسسة نوفل

الرحالون العرب ومضارة الغرب
في النهضة العربية الحديثة
للدكتورة نازك سابا يارد
دراسة تهتم بالعمق والدقة، وترصد مواقف الرحالين العرب من الحضارة الغربية في الحقبة الممتدة من ١٨٢٦ الى ١٩٣٩

فلسفة ميخائيل نعيمه
للدكتور محمد شيّا
بحث منهجي يكشف عن مضامين فلسفة نعيمه وأبعادها. ومعه يظل علينا ناسك الشخروب مفكراً فلسفياً كبيراً كما هو أديب وكاتب فني كبير

أعلام الجيل الأول من شعراء العربية
في القرن العشرين
للعلامة أنيس المقدسي
دراسات تحليلية في شعر شوقي - حافظ - طوقان - الزهاوي - الرصافي - المنفلوطي - الأخطل الصغير - ايليا أبو ماضي ... ومختارات نموذجية لروائع القصائد الغنية

سنابل الزمن
للأستاذ محمد قره علي
روائع ومأثورات شرقية وعربية. مختارات كل كلمة منها كتاب، وكل بيت ديوان

الضاحكون
للأستاذ محمد قره علي
كتاب فيه النكتة البارعة والعظة البليغة والحكمة العميقة وهو في تبويبه وتنسيقه وأسلوبه يغري القارئ ويغنيه

الأعمال الكاملة - مجلدان -
مي زيادة
تضم هذه المجموعة كل ما خطته الأديبة الرائدة مي زيادة من خطب ومحاضرات ومقالات نقدية، وأبحاث ودراسات، بقلم يتوهج بالفن ويشتعل بالتمرد والطموح

الأعمال الكاملة - مجلدان -
للأستاذ سلام الراسي
موسوعة حكايات ونوادر وأمثال وأقوال وأحداث يرويها الكاتب بشاقة ودقة وطبيعية وفن، وتؤلف جزءاً كبيراً من ثقافتنا الشعبية وتراثنا الفولكلوري العربي

الناس بالناس ...
للأستاذ سلام الراسي
مجموعة طرائف وحكايات وملح ونوادر من أعماق تراثنا الاجتماعي يضيفها المؤلف إلى مجموعاته السابقة ويضفي عليها من قلمه حيوية وحمدة وديمومة

الأعمال الروائية الكاملة
للسيدة اميلي نصرالله
في روايات اميلي نصرالله تعبير عن معاناة الانسان في مناخات المجتمع والعصر. وفيها نكهة القصص الأصولي ملقحة بأهم العناصر الروائية الحديثة

تلك الذكريات
للسيدة اميلي نصرالله
أثر روائي يستوحي الأحداث اللبنانية الدموية مختصراً عمق المأساة وأبعاد المصير وروعة الإبداع

نكات فازنية
للأستاذ رياض حنين
مجموعة تراثية في أدب النكتة، تحمل إلى القارئ البسمة والمتعة في كثير من الرشاقة والظرافة والعمق

سلسلة "العالم بين يديك"
مكتبة مكدونلد للأطفال
سلسلة تقدم للقارئ الصغير المعرفة اللازمة لعمره بلغة سهلة وأسلوب جذاب يعتمد الرسوم الملوّنة تشويقاً له وتكويناً لشخصيته.
صدر من هذه السلسلة حتى الآن الموضوعات الآتية: مخلوقات - طبيعة - أساطير - مشاهير - حكايات ...

مكتب: بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة - تلفون: ٢٥٣٣٠٣ - ص.ب ١١/٢١٦١ - بيروت
بيروت - شارع المعماري - بناية نوفل - تلفون: ٣٥٤٣٩٤ - تلكس: نوستا ٢٢٢١٠ - لبنان
مستودع: بيروت - بناية مركز الأطباء - قرب مستشفى الجامعة الأميركية - تلفون: ٣٥٤٨٩٨ - لبنان